

أبو شادي شاعرا

-١-

قبل اليوم وقفنا من أبي شادي موقفا تاريخيا موضوعيا حين عرضنا لديوانه المشهور « الشفق الباكي »، وأحين عرض هو لاذاعة هذا الديوان ونشره في الجمهور، واطننا استطعنا هناك أن نظهر الجمهور على شيء من العوامل التي لا بست حياته وطبعت شعره طابعه الخاص سواء في الموضوعات أو الأساليب أو النزعة التجديدية القوية... ولكن يظهر أن تلك الوقفة لم تقتنعني كما لم تقتنع كثيرا من قرائه المعجبين به والذين يحبون استظهار الفكر الرئيسية التي تسيطر على نفس هذا الشاعر وتسود شعره... فكان لابد من الإلمام به المامة—وان تكن عجلي—فلقد يكون فيها بيان موقفه في هذه النهضة الحديثة. نهضة الأدب العربي عامة والشعر خاصة، ولا أتنبأ بنتيجة هذا البحث وما قد يكون فيه من الخير أو الشر للشاعر أو الشعر نفسه، فتلك مسألة لأحب التفرد بالحكم فيها وبحسبي أن أحاول شرح ما أراه، والناس أحرار فيما يرون ماداموا معتمدين على دراسات وبراہین.

مسألتان أحب أن أقدم بهما هذا البحث أما أحدهما فميزة الشعر من ناحيته الفنية وأما الثانية فعلاقة الشعر بعصره وبروح هذا العصر من حيث الثقافة والنزعة العالمية حقا إن النظرية الانجليزية هي أن الأدب نقد الحياة ومعرفة الإنسان نفسه وما حوله، وسواء أكانت هذه النظرية من مستحدثات هذا العصر أم هي بعينها نظرية القدماء من فلاسفة اليونان الذين يقولون « اعرف نفسك قبل كل شيء »، فانها من غير شك تفيدنا في هاتين المسألتين، إذ يقولون أيضا إن مهمة الشاعر—مثلا—ليست فقط فهم المعاني والاحاطة بموضوع مسألته وفهمها، وإنما المهمة العظمى هي السيل التي يتخذها لإدراك رسالته، ومعنى هذا—بالتعبير الاصطلاحي—أن مهمة الشاعر هي في فهمه وما يسدله على الحقائق والموضوعات من دقة التصور وحسن الخيال والتصرف في الحقائق بما يجعلها سائغة جميلة تمتاز في الشعر عنها في النثر. وهنا نقول لا بأس على الشعر أن يكون مستقر الحقائق مهما تكن، ولكن من الناحية الفنية فقط، حتى يكسبها الشعر جمالا

يزيل جفاءها ويتحاشى براهينها ومنطقها الرسمي لتسود حلوة حارة صادقة. وهنا تسقط أول شبهة لأولئك الذين يعميرون على أبي شادى تناوله المسائل العلمية حين يشعر متأثرا بنفسه أو بدراسات بعض الأدباء الغربيين ، ولو أن أبا شادى كان عالماً فقط ينظم لنا المسائل العلمية الخالصة لكننا أسبق الناس إلى الثورة في وجهه ورفض شعره ، أما وهو يشعر في ضوء العلم ويتخذ من ثقافته العلمية مصفاة للشعر من السخافات وملهمة لكثير من التصورات والفكر فليس في ذلك من عار ولا عاب ... ولست أغلو ، بل أقول أن علم أبي شادى قد يطنى على عاضقته . وقد يكون ذلك لسرعة اتجاها أولانا نحن متأثرون بزعات شعرية خاصة تجعل مثل هذا الشعر في بعض الأحيان غريباً عنا أو سابقاً لأوانه ، وسأعرض لذلك مرة ثانية في هذا المقال

وأنت بعد هذا تستطيع أن تجد في شعر أبي شادى وغيره صوراً شتى لقيمة هذا هذا الفن الشعرى في تجميل الحقائق والتأثير في النفوس واجتذابها مصداقاً لـ "أنا تول فرانس الذى يرى أن الفنون تسر ، وعليها أن تجذبنا إليها بما فيها من سحر البلاغة وقوة الأداء — خبرنى ما الذى راعك في قول ابن الجهم لما صلب :

إن يبتذل فالبدن لا يزرى به أن كان ليلة تممة مبدولاً

مأغابه أن يز عنه ثوبه فالسيف أهول ما يرى مصقولاً

هل تجد في هذا الشعر إذا صفيته أكثر من محاولته رد الشبهة في عريه وابتذاله بأسلوب لوقته بمقياس الحقيقة الخالصة لسقط وكان صغراً ، فأين حاله من السيف المنصبت بل من البدن المكتمل ؟ .. ولكن انظر كيف حاول الرجل اقتناع عواطفنا — وأخشى أن أقول وفكرنا — بأن ما حدث له إنما هو أمر عادى بل جميل مقبول ينال البدن فيكون جليلاً والسيف فيكون مهيباً مخوفاً

واقعد ذكرت لك هذا المثل لتعرف قيمة الفن في الأداء ومقدار صلته بالحقائق العلمية وغيرها. ولو كان الديوان أسمى الآن لأظهرتك على شيء كثير منه

وهناك مسألة أخرى تتصل بالنقطة الفنية اتصالاً وثيقاً به أسلوب هذا الشاعر ، أما أنا فكما ذكرت ذلك — في غير هذا الموضوع — أرى أن الدكتور أبا شادى قادر على

الجزالة وقوة الأسلوب، وشعره شاهد بذلك، ولكنه يحاول أن يكون مصرى أو يتعصب للبهاء زهير ويرى في أسلوبه اللغة المصرية المناسبة غير مبال رأى المفتونين بالموسيقى اللفظية الرنانة المقلدة، ويعنى جل العناية بالثقافة الموضوعية والمعنوية — والحق — سواء أَرْضَى أم غَضِبَ — أن في أسلوب الشاعر تفاوتاً واضحاً، فينا تراه جزلاً — في سلاسة — إذ تراه سهلاً مهلهلاً. وأنت واجد مثل الحال الأولى في مثل رثاء صروف و ثروت والبيئة . وللحالة الأخيرة أمثلة في ديوانه . ولا شك أن المتأثرين بالشعر القديم لا يرضون إلا بالشعر فخماً رناناً غير معنيين بروح العصر وما استلزم من استحالة لفظية أذكر ذلك لأننى رأيت جماعة من المتأدين يذهبون في هذا الشاعر مذهبين متناقضين، فنسكرك عليه، متطرف ومتعصب له غالب، ونرجو ألا نكون من أحد الطرفين. ولا أذكر مذاهب اللفظية في الشعر من حيث الوزن فذلك قد وفته في غير هذا المكان

— ٢ —

المسألة الثانية وهى هامة قوية . صلة الشاعر . ونوع رسالته ومقدار الصلة بينه وبين ما تتطلب الحياة من جهد شعرى .. فالإنسانية وخيرها . والتعاون العالمى . والتفاؤل التام ، أظنها تلخص رسالة أبى شادى تلخيصاً مقبولاً .. ولكن أين تلك من مهمة الشاعر . وهل من وظيفة الشاعر أن يكون رجل إصلاح وداعية خير مع أنه رجل فن يبعث في النفوس إعجاباً بأدائه مهما يكن لونه ؟

وهذه المسألة تحوجنا الى استعراض التاريخ لفكرة الشاعرية فقد كان الشعر قديماً مظهر الفردية يظنه صاحبه — والناس معه — نوعاً من الفسكاهة والتندر لا يبيغون من الشاعر زعامة أو نبوة وإصلاحاً، فعاش الشعر بسيطاً سقيماً يعبر عن عاطفة صاحبه فقط وهذا ما يميل إليه بعض المتأدين اليوم الذين ينكرون علينا صلة الشعر بعصره الاجتماعى والياسى والعقل . . . ولكن الشعر نفسه أخذ بتوالى الزمن وتنبه الشعراء يسيطر على الناحية المعنوية للحياة الدنيا كما تسيطر الكبرياء مثلاً على مادتها، وصار بعد حين صورة للأهم والشعوب في فترات تاريخية تطول وتقصّر مع جهد الشاعر وإحاطته، وآخر الأمر كان الشعر في الدنيا روحاً حين كان العلم مادتها وجسمها . فانظر إذن قيمة الشعر والأدب وتعاونهما — مع العلم والمال — في بناء الحياة وتقويمها ؟ وكان عهد

الناس بالشاعر مادحا فاذا به اليوم ممدودح لانه ملك وزعيم ،ولانه صاحب دعوة
ورسالة،ولانه مرب ومهذب وعليه قسط كبير فى تكوين العقل البشرى وتوجيهه الى
صلاحه .. فهل بعد هذا تنكر على أبى شادى أن يكون صاحب فكرة الخير والتفاؤل
والتعاون العالمى والميل الى سيادة الانسانية ؟! نعم ان الشاعر كالفنان له أن يعرض
لمظاهر الشر أو الرذيلة ولكن كيف ذلك ؟ أيفرى بها الناس ويحملها بفنه ليرتدى فى
حماتها الاغرار أو الشبان فتكون العاقبة وخيمة خاسرة ؟ أم يحللها ويبين عواقبها وما
ينبت فيها من شرور وضلال فيكون ذلك على الأقل انصافا للحق بله تبصير الناس
وصرفهم الى الطهر والكمال .. لكن الغاية العالمية للسكون بمجولة أو معروفة ولكن
الطبيعة صريحة أو مغرية تسوقنا للخدمة غايتها وتخلق الوسائل لحل الناس على التثبت
بمبادئها والنزول على ارادتها المعتدلة .. أليس الأجدر بالناس أن يري رينان أن يساعدوا
الطبيعة فى مهمتها الخيرة وان يعرضوا على الناس صورا وضاءة للحياة مادام التشاؤم
لا يجدى غير البؤس والتبرم وسوء المصير ؟ !

أما أنا فلن أقنع من الشاعر أن يقف عند حد التعبير دون أن يوحى لنا برسالة
تؤثر فى الحياة الدنيا والا كان الشعر والأدب مهزلة تضحك العلماء، ولا أبغى من الشاعر
أن يعرض للحكم والخطابة والوعظ وإنما أرجو منه أن يبعث بروحه ومبدئه فى
ثنايا قوله ممثلا وواصفا وقاصا وموريا .. ومثله مثل المصور الماهر أو الرسام لا تغنيه
الالوان والاضلاع إلا بمقدار ما يبعث من شرح عاطفة أو تمثيل مشهد أو تحليل نفسيات،
ولا أدرى إذا كنت هنا أشير لشعره التصويرى وكيف فتح بابه ووفق فيه ؟



لفكرة الانسانية والتعاون العالمى والتفاؤل مظاهر شتى فى خلق هذا الشاعر وفى
شعره . وفى موقفه من سائر الشعراء . بل وفى ناحية أخرى لا أخجل من ذكرها هى
ناحيته الغرامية وليس سرا ذكر ذلك فان المنة رخين كثيرا ما يلهفون لاستكناه مثل
هذه النواحي يستعينون بها على تفسير كثير من الآثار الفنية والأدبية لرجال الفنون
والاداب

اذكر أن أبا شادى كتب كثيراً من المقالات والقصائد حول التعاون الأدبى العالمى

في مناسبات شتى، وأوقن أن روح شعره تنطق في صراحة قوية — بهذه الفكرة وكثيرا ما تمنى تكوين جماعات أدبية من الشعراء والكتاب والمتأديين لهم ناد أو أدبية خاصة فيها يتعارفون تعارفا عمليا ويتعاونون على نهضة أدبية شعرية يقومون بها روح هذه اللغة ويصلونها باللغات الحية ويسيطرون بهذا الأدب العربي على الحياة المعنوية بل والمادية أيضاً . . أذكر ذلك والعهد قريب برابطة الأدب الجدد التي بدأها في الاسكندرية ويحييها في القاهرة وينفق من الجهد والمال كثيراً ليعث فيها حياة وقوة

يحب أبو شادي الحياة، ويحبها بسامة، بل لا يود أن يفهمها الاضاحكة. هازنا في سبيل ذلك بعقبات مالية وأزمات مصلحية، ويمتد أولئك الذين يصرفون أنفسهم إلى الناحية السوداء وينالون الكون بالنقمة والسخط على ما فيه مما لا يوافق أمرتهم . . حقا إن الدنيا لا تخلو من شر، بل ربما كان الشر ضروريا لصلاحتها وحركتها؛ وإذا كانت غاية الشر إنما هي صلاح الحياة فلم لا يكون وسيلة لازمة غابتها ذلك المثل الأعلى الذي تسير الدنيا إلى تحقيقه؟ والنهاية هي الخير على كل حال، وهب الشر أصيلا أو غايه. وهب تلك الغاية لا بد لها من دعاة . فهل من الختم أن يكون شاعرنا داعية سخط لا تقع عينه إلا على مصارع الفضيلة وظلام الكون؟

وهل من الحق أن ندعى على أبي شادي التقليد في ذلك وما رأيناه شاذا عنم مرة؟ وهل تشك في هذه الرسالة ونحن نراه في شعره وحديثه أيضا يعرف لكل شاعر ميزته وجماله في حين التنافر والتباغض مستحكم الحلقات بين جماعة الشعراء . نراه كالنحلة تنتفع بكل لذية من كل زهرة وترى الكمال مودعا في جهات الكون وفي عقول الناس، وأذن فخير للفرد أن يكون عادلا معتدلا يتلقى الخير والجمال أني عشر به، لا بعميه الوهم عن الحق، ولا يفتنه الشغف فيتعلم عن الهنات : . وأحسبك ترى في شعره هذه الصفة واضحة جليلة في غير قصيدة .

والناحية الغرامية؟ هذه موضع العجب. وربما كانت موضع الخلاف بيننا أيضا، ولا أقول هنا الآن الدكتور يري في المرأة ملهمة للشعر ومثالا لناحية فنية يتخذها نموذجه (Model) ويستوحىها أروع الخيال وأسمى النصور . . وينفر كثيرا من الناحية الغريزية

أو الحيوانية فيذهب إلى أنها متلفة لحرارة الشعر مذهباً لروعة الفن متدلية به إلى أخط الدرجات .. لا بأس في ذلك بل ربما كان هذا هو الحق .

وغرام شاعرنا حتى لاصناعة فيه يقوم على حرقه أمت به منذ الصبا وكان لها في حياته آثار سيئة — أوحسنة كما تشاء — ولكن نتائجها للشعر كانت حسنة من غير شك . أترك تفصيل ذلك لغير هذه القرصة ، وإنما أقرر هنا أن أبا شادى في هذه اللحظة الزمانية يشرف على (مثاله) أو يشرف عليه مثاله .. ولا يزال مع هذا يقول الغزل الصادق .. فكيف هذا؟ ولا أوضح ذلك — أرى أن الغزل الحار يكون مع الحرمان فينتج الشكوى الصادقة وحرقه الجوى التى تكاد تأكل الألفاظ أطلا . فإذا كان لقاء . ووصل فليس بعده هذا إلا الشعر القصصى الذى ينم عن اضطئان وسرور ووصف اللقاء واللهو .. ويدعى أبو شادى أنه في هذه اللحظة يقول غزلاً حاراً — وهو محق في ذلك — مع أنه على كذب من (فينوسه) . وهنا نفترق فأزعم أنا أنه في هذا الاقتراب أبعد ما يكون بل أشد حرماناً واحترافاً لأنه متأثر كما قلت لك بالتوقف عند درجة الفن لحسب . لا يجب أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه بما يمتته ، ولأن غرامه مشوب بمصارع ومأسيات سيكشف عنها التاريخ في الوقت المناسب . فلتترك صاحبنا هذا يحترق ما يشاء . ويشدو ما أراد ولننظر في غير ذلك .



أين أبو شادى من هذا العصر؟ الحكم في ذلك يتطلب منا تفهم العصر نفسه وما قد يمتاز به أدبه وشعره ! فلقد بدأت الحياة الأدبية الحديثة في هذه البلاد باحياء القديم وكان البارودى مثال هذه الخطوة الأولى في الشعر . فشعره صورة من الأقدمين المعروفين . وهذه الخطوة لازمة إذ لا يمكن بناء الجديد على غير هذا الأساس ، ولقد حاول الشعر الاتصال بالحياة الحديثة في الشرق . بل والتأثر بالغرب . ففسر لاسماعيل صبرى مع مدرسته أن يفرض على آثاره روحاً رفيقة فرنسية فيها خيال خصب جميل رائع ولكن الأدب عامة قد أتبعه بعد الحرب العالمية الأخيرة إلى ناحية فلسفية علمية ولم يعد الناس يقنعون من الأدب بالآفاقية يتدربها دون فهمها أو تحليلها . كذلك ألحوا على المنشئين أن يكونوا صورة صادقة لمصورهم فتشأت بذلك طبقة في مصر مالت بالشعر إلى تلك الناحية العلمية

الفلسفة وفترت كثيرا من أنواع المديح واللائطراء التي بليت بانتقضاء أيامها. فهل يجوز أن يكون الشعر علما وفلسفة؟

أما إن الشعر يصبح منظومات علمية أو فلسفية تعرض لتقدير الحقائق الخالصة والنظريات المجردة فشرع انتهى الناس من انكاره وقصروه على نظم المتون التي تسهل على الطلاب حفظ المسائل واستظهارها، على أن تحصيل العلوم بهذا الأسلوب صار ثقلا ممقوتا.

ولكن الشعر الذي يعيش في ضوء العلم والفلسفة هو الشعر التقويم البري من الخسف وفترى الفن الشعري إذا مسته الفلسفة روحها يزداد وعمقها يزداد. وقد ذكر الناس لذلك قصيدة المعري المشهورة في الزناء. . . وشاعرنا هذا له في ذلك مواقف معروفة.



فأبو شاذى مثقف ثقافة علمية فلسفية لا أظن أنها توافرت لكثير غيره ولا سيما من الشعراء. وثقافته هذه تظهر في ثمره إلى درجة قرائنة معجزة. وتتمس شعره ماسخينا أحيانا وأويا في بعض القصائد حتى لتكاد تشعر أن صاحبنا عالم يملى على الناس (المراسيم) التي لا مرد لها. على حد تعبير صديقنا الأديب العبقري الأستاذ كامل كيلانى. . . — وهذا يتعثر بعض القراء فيرون في ذلك مبالغة في تحميل الشعر ما لا يطيق. أو في سبق الزمن. . . وأبو شاذى يريد أن يجعل للشعر سلطانا على مظاهر الحياة فيستوعبها سواء أكانت علما أم فناء أم أدبا. — لا يحجم عن ذلك بل قد يغلو. ولا شك أن المنصفين وواقفونه إلى درجة تأثير الشعر بالرسالة العالمية التي تشمل فيما انتهى إليه الزمن من التقدم العلمى أو الفنى أو الفلسفى. فتكون تلك عصابات تنتهى إلى روح الشاعر فيبرزها لتجسدها فثنا جيلا خالصا بغذى حاج النفوس ويقرأ فيه الناس أرواحهم وما يشعرون.

نتيجة ذلك كله أن أباشاذى الآن يقف عند نهاية الطريق التي يحاول الشعر أن يصل إلى غايتها في هذا العصر. . . ولكن موقفه ليس المثل الأعلى — كما يصفه أنصاره المخلصون، كإنه ليس مقصرا — كما قد يلاحظ ذلك بعض ناقديه، وإنما موقفه موقف الشاعر العصرى الفاتح الذى يبدأ الجهد ويغنى الكمال !